الصورة الشعرية في شعر الصعاليك
ودورها في الكشف عن الجوانب الإنسانية

أعداد

د. عبد المنعم على عثمان

مدرس البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

بكلية الآداب جامعة جنوب الوادي

بقنا

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يرجع التصوير فى الشعر إلى تعاون كل الحواس، وكل الملكات، والشاعر المصور حين يربط بين الأشياء يثير العواطف الأخلاقية، والمعانى الفكرية ، ويكشف عن الجوانب الإنسانية داخل الإنسان القائل ، وداخل الإنسان المتلقى، والصورة منهاج لا يخضع لمنطق ما؛ إنها تعتمد على الخيال القائم على إدراك الروابط بين الأشياء.

والصورة الشعرية - فى أبسط تعريف - هى نقل تجربة حسية ، أو حالة عاطفية من الشاعر إلى المتلقى فى شكل فنى تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بيانى خاص ؛ ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة فى القصيدة .

وهى تقابل التقرير - إعطاء المعنى باللفظ القاموسى المباشر أو المحدد - وهى باعتبارها أثراً فنياً تقوم على شيئين ؛ الأول : الموقف الفكرى الذى يقفه الشاعر من العالم ، وحركة الحياة فيه . والثانى : هذا الشكل الفنى الذى يمكن أن يثير فى المتلقى شيئاً ما ، أو يحرك فيه عاطفة معينة ، وبالتالى يمكن أن يستميله ، ويؤثر فيه بما يثبته فى الشكل من صور وخواطر ورموز وإشارات موحية مستخدماً طاقات اللغة ، وإمكاناتها فى الدلالة والتركيب والإيقاع والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس ، وغيرها من مسائل التعبير الفنى .

وأساس الصورة الأول هو الواقع ؛ إذ هى تعتمد وجودها منه ، وإن اعتمدت على الخيال ؛ فما الخيال فى الحقيقة إلا واقع نفسى ينقل القارئ أو المتلقى من واقع الماديات المحسوس إلى عالم الشعر[1] .

ويتميز الشعراء الصعاليك من بين شعراء الجاهلية بأنهم لم يكونوا يقصدون إلى بناء الصور الشعرية فى قصائدهم لذاتها فحسب ، وإنما كانوا يقصدون إلى أن يعبروا من خلالها عن قضاياهم ، وأحاسيسهم ، ومواقفهم من الحياة والناس من حولهم ؛ لأنهم عاشوا مرحلة زمنية ترى فيها الإنسان مأزوماً روحياً ، ونفسيا واجتماعياً ، واقتصادياً وأخلاقياً .

وأضحت قصيدتهم ذات خصوصية فى موضوعاتها وبنائها ؛ فلم تقف عند منهج القصيدة الجاهلية المعروف بعمود الشعر ، كما أنهم تحدثوا فى شعرهم عن الجوانب الإنسانية المختلفة فى صدق إنسانى منقطع النظير ، بعيداً عن التكلف والتصنع[2].

وما من شك فى أن القيمة الإنسانية للشعر تستمد من التجاوب بين نبض الشاعر ونبض الحياة وأحداثها ، ومن حرية الفكر وبساطة الأسلوب[3]. ومن هنا جاءت فكرة البحث لتؤكد على قوة تأثير الصورة الشعرية ، وعظم دورها فى الكشف عن الجوانب الإنسانية المتعددة فى حياة الصعاليك .

ومعلوم أن هذا الموضوع قد سبق تناوله بالدراسة لدى باحثين سابقين ، ولكن هذا لا يمنع من قراءة أخرى تهتم بزاوية الكشف عن غنى هذه الأشعار بالمضمون الإنسانى العميق الذى تجسده الصورة الشعرية فيبدو ماثلاً للناظرين ، وتشخصه فيبدو حياً نابضاً متحدثاً بلغة المشاعر والأحاسيس، وما كان لأحد أن يفرض على النص الشعرى قراءة واحدة ، زاعماً أنها جمعت كل ما فى النص ، وكل ما يمكن أن يقال فيه ؛ لأن مثل هذا الاتجاه فى النقد الأدبى لا يعنى سوى شىء واحد هو موت النص .

وهذا النص الشعرى القديم قد اكتسب خلوده من خلال ما يجرى فيه من تصوير دقيق لمخزون تاريخى اجتماعى إنسانى عميق ؛ " لأن حياة العصر القديم أعمقُ مما يجرى على أقلامنا حتى الآن ، وقد شهد هذا العصر صراعاً روحياً قوياً لم يقدر تقديراً ملائماً ، وإن نشأة الإسلام العظيم فى نهاية هذا العصر لا يمكن أن نهون من دلالاتها ومغزاها ؛ إنها تعنى - بكل اختصار - أننا أمام عصر يضطرم فيه القلق ، ويبلغ ذروته" (٤) .

وغنى قصيدة الصعاليك بتصوير الجوانب الإنسانية أثرى لغة العرب التى تبوأت ذروة الخلود بنزول القرآن العظيم بلسان عربى مبين ؛ ليكون شاهد حق على علو هامة هذه اللغة بين قريناتها من لغات الأمم القديمة ، فكيف لا يكون الأمر كذلك ، " وفقر الدلالة الإنسانية والمضمون الاجتماعى فى الأدب يمسخ اللغة ، ويفرغها من مخزونها التاريخى الاجتماعى ، وينتهى بها إلى ضمور شديد فى وظيفتها ، وقصور فى طاقاتها "(٥).

والشعر - فى حقيقته الخالدة - حديث غير مباشر عن الحياة بمفهومها الإنسانى الشامل الرحيب ، ولابد من الإنصات إلى لغته الرامزة الموحية للكشف عن دور الصورة الشعرية فى رؤية الذات الشاعرة ، وما تكابده فى الحياة من خلال النفوذ إلى علاقتها بالموضوع الذى تعالجه ، سواء أكان هذا الموضوع متصلاً بالإنسان آماله وآلامه ، أم البيئة زمانها ومكانها ، أم الحيوان الأعجم الذى تنطقه الصور والكلمات فتجعله متكلماً فصيحاً ، يشكو ويتألم ، ويتجاوب مع مشاعر الآدميين المحيطين به ، ويشاطرهم أفراحهم وأتراحهم .

ولذا فقد تناول البحث صورة أربعة جوانب إنسانية رئيسية فى حياة الصعاليك ، أبرزوها فى تصويرهم الشعرى الحى النابض ، ألا وهى : الجانب الاجتماعى ، والجانب الاقتصادى ، والجانب النفسى ، والجانب الأخلاقى .

هذا وإن كنت قد وفقت فى الكشف عن دور الصورة الشعرية فى التعرف على الجوانب الإنسانية لهؤلاء الشعراء الصعاليك فإن التوفيق من عند الله ، وإن كانت الأخرى فحسبى أننى قد حاولت ، وعلى الله قصد السبيل.

أولاً : صورة الجانب الاجتماعى

لقد صور الشعراء الصعاليك حرمانهم من العدالة الاجتماعية فى مجتمع الجاهلية القبلى أصدق التصوير ؛ حيث لاقوا صنوفاً عدة من القهر والتعصب والعنصرية التى كانت السمة الغالبة لنظام القبيلة آنذاك ، ويتمثل هذا الظلم فى ما لاقته طائفة من الصعاليك يسمون بأغربة العرب[٦] ، وهم مجموعة من السود أبناء الحبشيات ممن نبذهم آباؤهم ، ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السُّليك بن السُّلكة ، وتأبط شراً ، والشنفرى ، كما يتمثل هذا الظلم فى أمور أخرى من مثل ما حدث مع أمير الصعاليك عروة بن الورد العبسى الذى كانت القبيلة تبغضه لمجرد التشاؤم من أبيه المتسبب فى حرب داحس والغبراء التى نشبت بينها وبين فزارة ، كما كان أبوه يذيقه من ظلم التفرقة فى المعاملة لأن أمه من نهد القبيلة الأقل شأناً ؛ فيؤثر عليه أخاه الأكبر ، ومن هنا بدأت اتجاهه إلى حياة الصعلكة .

وهاهو الشنفرى الأزدى أحد الذين سلكوا حياة الصعلكة حتى لقى حتفه ، والذى حالفته قسوة الظلم منذ عرف نفسه ، يصور هذا فى شعره البديع من مطلع لاميته المعروفة[٧] ؛ فيقول :

أقيموا بنى أمي صدور مطيكم ∴ فإنى إلى قومى سواكم لأميلُ
فقد حُمّت الحاجات والليل مقمر ∴ وشدّت لطيّات مطايا وأرحلُ

فالصورة الشعرية فى هذين البيتين تكشف عن مرارة الإحساس بالظلم لدى الشاعر ؛ فتعبيره بالنداء (بنى أمى) يوحى بمعانى المودة والتراحم والشفقة ، واستخدام التعبير باسم التفضيل (أميل) يؤكد على أنه يميل إلى البقاء فيهم ، ولكنهم بادروه بالطرد والإهانة ، فعز ذلك عليه فقال لهم فى أنفة العربى : إنى لأميل فى حبى لمجتمع الصعلكة ، ولكن بناء الفعل للمجهول (حمت – شدت) يكشف عن غير ذلك ، ويظهر الصراع المحتدم فى نفسه ؛ فهو لم يرد الرحيل ، ولم يستعجل الفراق ، ولم يشدد مطية ، ولم يرحّل رحلا ؛ فكأن غيره الذى فعل ذلك لا هو .

والرمز فى قوله (الليل مقمر) واضح فقد انكشفت له الأمور ، وعرف من أهله الحقيقيون ؟ ، وتبدد الظلام الذى يكتنف علاقة الشاعر بقومه، وظهر له ظلم هذا المجتمع وعصبيته القاسية ضد الملونين وأبناء أسيرات الغزو .

والعقل وحده لا العواطف الخادعة هى التى تضىء للإنسان سبيله ؛ فأرض الله واسعة فيها الراحة لذى الرغبة بالعيش ، ولطالب الأمن النفسى والسكن الروحى ؛ فهى الملاذ لكل راغب وراهب ، فهو يقول مصوراً ذلك :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ∴ وفيها لمن خاف القِلى متعزّلُ

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القِلى متعزّلُ
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ ... سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

إذاً انكشف غطاء العماية ، ورسم خيال الشاعر صورة أرض جديدة يلجأ إليها غير أرض القلى والكراهية ، إنها مدينة فاضلة أكرم من مدينة البشر ، إنها مدينة الوحوش من الذئاب والنمور والضباع ؛ حيث الصدق فى المواجهة والمعاملة ، فيقول فى تصوير هذه المدينة الجديدة :

ولى دونكم أهلون : سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيألُ
هم الأهل ، لا مستودع السر ذائع ... لديهم ، ولا الجانى بما جرّ يُخذلُ
وكلٌّ أبيٌّ باسلٌ غير أننى ... إذا عرضت أولى الطرائد أبسلُ

إننا أمام لوحة متقنة رسمها الشاعر لمجتمع الصعاليك ، لوحة وحشية فيها الألوان المتباينة من غبرة السيد العملس ؛ أى الذئب القوى ، والأرقط الذهلول ؛ أى النمر الأملس ، والعرفاء الجيأل ؛ أى الضبع كثيفة الشعر ، وها هى حركة الطرائد وعدْو الوحوش خلفها ، ولا تخطئ الآذان ما فى اللوحة من أصوات الوحوش وزئيرها . إنها لوحة فنية رائعة لمجتمع الشاعر الجديد وما يموج فيه من حركة الوحوش ، وما يكتنفه من أجواء البسالة والشجاعة ، وإن كان الشاعر أبسل وأشجع من كل هؤلاء .

نحن أمام (ذات) أرهقها المجتمع الإنسانى بظلمه وتقاليده الجائرة ؛ فإذا هى تخلع انتماءها إليه ، وتؤسس انتماء جديداً لها إلى المجتمع الحيوانى، إنها تغترب عن عالم الإنسان ، وتلوذ بعالم الوحوش الكاسرة ؛ فتكشف بذلك عن اغتراب قاسٍ جريح ، ولعل هذا السبب جعل الشنفرى يشبه نفسه فى كثير من مواضع هذه القصيدة بصورة الحيوانات الضارية ؛ بل بصورة الجن أحياناً .

من هذا القبيل أيضاً صورة الذات المغتربة التى لا تربطها بالمجتمع الإنانى أية رابطة والتى جاءت فى البيت الرائع لتأبط شراً :

يرى الوحشة الأنسَ الأنيس ويهتدى ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابكِ[٨]

فهذه الذات تقرر الفرار من عالم الناس الخانق إلى الصحراء حيث العالم الفسيح ؛ فهى لا تخشى الوحدة بل تأنس بها غاية الإيناس ، وهى تعرف مسالك تلك الصحراء جيداً ؛ فلا تضل فى مسراها كما لا تضل الشمس ؛ فظلم المجتمع الإنسانى قد دفعها دفعاً إلى مجتمع الوحشة والوحوش
وساقها سوقاً إلى القلق والاضطراب .

والصورة الشعرية هنا مركبة ؛ إذ بها من التجسيد والتشخيص فى قوله (يرى الوحشة الأنس الأنيس) ما يجعل الوحشة كائناً متجسداً منظوراً لعين القلب والبصيرة ، كما يجعلها آنسة مأنوساً بها ، تسلم الشاعر إلى السكينة والهدوء بعد المعاناة من صخب المجتمع الانسانى ، ولأمته التى تحرق جلده تحريقاً ؛ ولذا يصف الشاعر هذا الأنس بصيغة المبالغة (الأنيس)، والتضاد بين الوحشة والأنس يوحى بتقلبات أحوال الشاعر وحياته من عالم زاخر بالضجيج إلى عالم يلفه السكون .

وفى قوله (ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك) من التصوير القائم على التشبيه والكناية ما يكشف عن خبرة هذا الشاعر الصعلوك بالمجتمع الوحشى الصحراوى ومعرفته لمسالكه ، واهتدائه فى شعابه ومهاويه ومضايقه ؛ فهو يشبه أم النجوم الشوابك ؛ أى الشمس التى لا تضل طريقها إلى الغاية التى تقصدها .

وهكذا وجد الصعاليك فى مجتمعهم الجديد الراحة والأنس والمأنس بعيداً عن الأذى والبغض فى المجتمع الإنسانى ؛ فلم تضق الأرض بهم لأن سبلها دائماً تسع كل من يؤمها ، فوجدوا فى وحوش الصحراء أهلهم الحقيقيين ؛ بل كانوا أفضل من الأهل فى وفائهم ، ولم يكن الصعلوك أقل وفاءً فقد خلد بإبداعه ذكرهم ووصفهم الذى بلغ فيه الغاية فى صدق الإحساس وعمقه ، وجمال الصورة وروعتها ؛ فيقول تأبط شراً مصوراً عظيم الألفة بينه وبين الوحوش :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ∴ ويصبح لا يحمى لها الدهرَ مرتعَا
رأين فتى لا صيد وحش يهمه ∴ فلو صافحت إنساً لصافحنه معَا[٩]

فاستخدام لفظى الألفة والمصافحة فى هذه الصورة يوحى بطول الأمد الذى يقضيه هذا الصعلوك بصحبة الوحوش ، كما أن قوله (لا يحمى لها الدهر مرتعا) ، وقوله (لا صيد وحش يهمه) يدل على سريان قانون الغاب الذى يأكل فيه القوى الضعيف حال الاحتياج إلى الطعام ؛ فهو يبيت بين هذه الوحوش آمناً قد ألفنه ، وإذا صحا من نومه جاتعاً لم تبخل عليه بإحداها كى يسد خواء جوفه .

واحترام هذا القانون هو الذى جعل الشنفرى يعامل هذه الوحوش بالمثل ، وذلك حينما أوصى بألا يقبر عند موته ؛ بل يترك للضبع تأكل لحمه، فيقول :

لا تقبرونى إن قبرى محرم ∴ عليكم ، ولكن أبشرى أمَّ عامر
إذا احتملتْ رأسى ، وفى الرأس أكثرى ∴ وغودر عند الملتقى ثَمَّ سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرنى ∴ سميرَ الليالى مُبْسَلاً بالجرائر[١٠]

فانظر إليه يحاور أم عامر وهى كنية الضبع ، ويبشرها وكأنها شخص تربطه وإياه علاقات المودة والمشاركة الوجدانية فى الخير والشر ؛ فينهى صحبه أن يدفنوه عند موته ؛ بل ليتركوه للضبع وليمة شهية ، كما أنه يرى إذا قتل وقطعت الضبع رأسه احتملته ، وفى الرأس وحده ما يرجح باقى جسمه لما تحويه من الحواس فما حاجته إذاً إلى قبر يحيا فيه حياة أخرى مثقلاً بالجرائر إلى الأبد ؛ أى الجرائم التى ارتكبها .

فقد عاش الصعاليك فى تلك البوادى الشاسعة التى تشكل معظم شبه الجزيرة العربية ، حولهم الصحراء بلا مدى ، حرها لافح ، وليلها قارس ، وأرضها عاقر ، وحيوانها يقتات بمن لا يبادر به ، وديانها معداهم ومرتعهم، وجبالها مأواهم المنيع[11] . فيصور الشنفرى يوماً من أيام هذه البيئة الصحراوية فيقول :

ويوم من الشعرَ يذوب لوَابُهُ أفاعيه فى رمضائه تتململُ[12]

واللواب : اللعاب ؛ إذ تخيل الشاعر للحر لعاباً يسيل من شدته ، وجعل الأفاعى تئن وتتقلب وتضطرب فى الصحراء المحرقة من شدة الرمضاء ووخذة الألم . واللواب يوحى بوجود رطوبة تصاحب هذا الحر الشديد .

تلك هى البيئة التى تمثل مجتمعهم الجديد ، قد تطبعوا بطابعها وتخلقوا بأخلاقها ، فكانوا جفاة ناقمين فى ظاهرهم ، ذوى أحاسيس ومشاعر دفاقة تسع آلامهم وآلام الآخرين فى ضمائرهم . فعاشوا فوق رمال الصحراء الشاحبة ، وتحت أشعة الشمس اللاهبة كأنهم جذوع نخل سامقة .

ومن هنا أخذ الصعاليك يستبدلون مجتمع العصبية القبلية الظالم بمجتمع العصبية المذهبية الذى يدين بالولاء والعرفان لحياة الصعلكة القائمة على السعى وراء القنص والسطو ، والتهجم والاستلاب ؛ فكان عاشق الصعاليك وأميرهم عروة بن الورد الذى يمثل هذا النموذج الإنسانى المتمرد الثائر يحمل على عاتقه أن يأخذ من الظالم للمظلوم ، وأن يسلب الأشحاء ما يملكون تحقيقاً للعدل الذى غاب فى ظلمات الجهل والعصبية المقيتة ؛ فلقبوه بمانع الضيم لأنه يؤثر الموت ولا يضام فى حماه أحد ، ولقبوه بأبى نجدة لأنه ما تخلى قط عن نجدة مستجير ، ولقبوه بأبى الصعاليك لأنه قلبهم الحنون قائدهم العظيم ؛ فقد كان إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، فيجمع عروة هؤلاء العجزة جميعا ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويشيد لهم الحظائر ويكسبهم ، ويطعمهم ويؤويهم ؛ فمن قوى منهم – إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته – خرج به إلى الغارات ، وجعل لأصحابه الباقين فى

ذلك نصيباً ، حت إذا أخصب الناس وألبنوا ، وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ؛ فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى [١٣] .

ويصور عروة ذلك فى اشعاره ؛ فيقول مخاطباً زوجه التى تلومه على المخاطرة بنفسه :

أقلى علىَّ اللوم يا ابنة منذر ∴ ونامى فإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى ونفسى أم حسان إننى ∴ لما قيل إن لم أملك الأمر مشترى
ذرينى أطوفْ فى البلاد لعلنى ∴ أخليكِ أو أغنيكِ عن سوء محضرى
فإن فاز سهم للمنية لم أكن ∴ جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد ∴ لكم خلف أدبار البيوت ومنظر[١٤]

فكم من مرة لامته زوجه على الخطار بنفسه ، ويؤيد هذا قوله (أقلى) ، فما كان منه إلا أن طلب منها الإقلال من لومه ، وأن تطمئن وتخلى بينه وبين نفسه التى تأمره بالغزو والغارات ، وانظر إلى التشخيص الذى يبرز فكرتهم ويجليها حين جرد من نفسه مستشيراً يسمع لمشورته ، ولا يسمع لمشورة زوجه .

إذاً فلتدعه أم حسان وما يهوى من التطواف بين المهامه والقفار رجاء موت كريم يريحه من التعاسة والعناء ، أو كسب شئ يغنيهم عن الذلة وتكفف الناس . واستخدام (أطوف) المضعّف العين يعطى صورة المبالغة فى الغارات والغزوات ، ثم صورة المقامرة التى يخوضها الشاعر مع المنية والرهان حياته ؛ فلا يجزع إذا فاز سهم الموت ، ويرحب به لأنه ما من متأخر عن لقائه ، وإن فاز سهمه وكسب الرهان ، وعاد سالماً غانماً من رحلاته وغزواته فأجدر به عوداً حميداً يكفى أحبته من فقراء الصعاليك حياة الذلة والهوان ، ويشبع جوعتهم ، ويجعل الحياة تدب فى هياكلهم الجافة المتناثرة أدبار المنازل .

فالصورة فى الأبيات لوحة فنية متكاملة ، فيها أصوات المحاورة والملامة الرقيقة العاتبة ، وفيها حركة التطواف والسهام والمنازلات القتالية الصاخبة ، وفيها ألوان البيوت الشاحبة ، ومظاهر البؤس التى بدت فى قتامة الوجوه وسوادها ، وتشقق الجلود ويبسها .

وهكذا تشهد الصحراء العربية أكبر زحف ضد الاستغلال - فيما قبل الإسلام - يضم الفرسان والشعراء بقيادة عروة بن الورد ، يأخذون ممن يملك ويبخل بماله على الفقراء ، ويعطون من لا يجد ما يقيم أوده ، ينتقمون ممن يطغى ، وينتصرون لمن يقع عليه الطغيان . إنهم ثورة وثروة معاً ؛ ثورة إنسانية تقوم على العدل والمساواة ، وتنادى بالحرية والحب والإخاء .

وصف الدكتور أحمد أمين بـ (الاشتراكية المبكرة) ؛ لأن هؤلاء الصعاليك يكونون مجتمعاً خاصاً بهم داخل المجتمع الكبير ، عماده تحصيل المال من من لا يستحقه من الأشحاء المستبدين ، ثم ينفذون بالقوة هذه الاشتراكية .

وثروة من الشعر تتميز فى العربية بنطاق فريد وتصوير رائع فيه الصدق والإباء[١٥] .

ثانياً : صورة الجانب الاقتصادى

قبل أن نتناول الأشعار التى صورت الجانب الاقتصادى فى حياة الصعاليك بالتحليل لابد أن ننظر إلى المعنى الخاص بكلمة (صعلوك) ؛ فقد ورد فى لسان العرب : أن الصعلوك هو الفقير الذى لا مال له ، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك ، يقول حاتم الطائى :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ∴ فكلاً سقاناه بكأسيهما الدهرُ
فما زادنا بغياً على ذى قرابة ∴ غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ[١٦]

وجاء فى القاموس المحيط : صعلكه أفقره ، وصعلك الثريدة : جعل لها رأساً، أو رقع رأسها ، ورجل مصعلك الرأس : مدوره ، وتصعلكت الإبل : طرحت أوبارها[١٧] .

ويتبين من ذلك أن الصعلوك فى اللغة هو الفقير الذى لا يملك من المال ما يعينه على ضروريات الحياة ؛ بل ما يعينه على دفع غائلة السغب والهلاك ، لكن هذه اللفظة لم تقف عند دلالتها اللغوية الخالصة ؛ فأخذت تدل على من يتجردون للغارات من جماعة الصعاليك الفرسان ، وقد أدت الطبقية التى سيطرت على نظام القبيلة فى تكوين طائفة الصعاليك ؛ فقد كانت هناك ثلاث طبقات : أولاهما تمتعت بكل الحقوق من شرف ومال وجاه ، وهى طبقة الصرحاء من أبناء القبيلة ، والثانية : طبقة الموالى من ذوى الجوار والعتقاء ، وكانت فى منزلة طيبة أيضاً ، ولكن دون الأولى . أما الطبقة الثالثة فهى طبقة العبيد وأبناء الإماء ، وقد كانت الطبقة المطحونة فى هذا المجتمع ، لا لشىء إلا أنه ليسوا من أبناء القبيلة الصرحاء ؛ فوقع عليهم كل الظلم ، ونالهم الفقر والحرمان والذلة والهوان ؛ مما جعلهم يفرون إلى نظام الصعلكة ، ويخرجون على نظام القبيلة[١٨] .

ولما كانت هذه الصحراء العربية يضيق جوفها - آنذاك - عن أن يمد لُقطانها من أسباب العيش غير ما كان يعيش عليه رجل الغابة الأول : يتنكب قوسه ، ويعلق كنانته ، أو يحمل رمحه ، ويتقلد سيفه ، ثم يضرب فى الأرض باحثاً عن قوته بين حيوان الصحراء ، وقد يؤوب بصيد سمين ، وقد يكون هو الصيد ، أو قد يفوته ما أمّل ؛ فلم يجد له بُدّا من أن يجعل هدفه أخاً له ، يفتك به ويجرده مما يحوز[١٩] .

فكذلك لم يجد الصعاليك بُدّا من الإغارة على هؤلاء الأغنياء الأشحاء الذين يمثلون رؤوس القبائل ، و يستأثرون بالأموال دون الفقراء ، وصارت حياة الصعاليك أمام هذه الظروف القاسية كما يصورها أميرهم عروة بن الورد فى قوله :

فيوماً على غارات نجد وأهلها ∴ ويوماً بأرض ذات شث وعرعر[٢٠]

فالصورة الشعرية فى هذا البيت تكشف عن حال هؤلاء القوم ، عن حال هذه الأرض التى يقطنونها ؛ فاستخدام حرف الجر (على) يدل على اللزوم ؛ كأنه يُلزم الغارات بإطعامهم ، فعليها لا على غيرها يقع أمر الطعام؛ لأنها سبيل الحياة الوحيد لديهم ، ولا مفر من ذلك ، وإلا سيكون هلاكهم جوعاً حتماً مقضيا . والكناية فى قوله (بأرض ذات شث وعرعر) تدل على فقر هذه الأرض وقحولتها ؛ لأن الشث والعرعر من النباتات الجبلية القصيرة الفقيرة ، وقوله : (فيوماً ... ويوماً) كناية عن عدم الاستقرار فى حياة هؤلاء الصعاليك ، وما يعانونه من القلق والاضطراب إزاء البحث عن لقمة العيش؛ فيوماً طاعمون ويوماً جائعون .

وما أجمل تصوير تأبط شراً للحالة البدنية للجائع فى قوله :

قليل ادخار الزاد إلا تعلّة ∴ وقد نشز الشرسوف والتصق المعى[٢١]

فالصعلوك لا يصل الطعام إلى جوفه إلا بعد مكابدة مرارة الجوع العديد من الأيام حتى تبرز أضلاعه وتلتصق أمعاؤه ؛ فقوله (تعلة) يوضح صورة التغذية لديهم ؛ فهم لا يأكلون إلا لتعليل النفس وإسكات جوعها وسد رمقها ، وقوله (وقد نشز الشرسوف والتصق المعى) كناية تصور شدة الهزال وغاية الضعف الذى يكون عليه الصعلوك ؛ فالشرسوف وهو الطرف اللين من الضلع مما يلى البطن قد نشز ؛ أى ظهر وبرز ، ولو كان فى حالة الشبع ما ظهر مطلقاً ، والمعى واحد الأمعاء ملتصق لخلوه من الطعام ، وهذا كله مما يوحى بشدة الجوع .

وقريب من هذا تلك الصورة الأدبية الرائعة التى رسمها الشنفرى فى لاميته للمعاناة التى يلقاها كل يوم فى رحلة البحث عن الزاد ، وذلك حيث يقول :

وأطوى على الخَمْص الحوايا كما انطوت ∴ خيوطةُ ماريٍّ تغار وتُفتلُ
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ∴ أزلّ تهاداه التنائف أطحلُ
غدا طاوياً يعارض الريح هافياً ∴ يخوت بأذناب الشعاب ويعسلُ
فلما لواه القوت من حيث أمّه ∴ دعا فأجابته نظائر نحّلُ
مهلهلة شيب الوجوه كأنها ∴ قداح بكفيْ ياسر تتقلقلُ[٢٢]

فإذا كانت أمعاء تأبط شراً قد التصق بعضها ببعض فإن حوايا الشنفرى قد انطوى بعضها على بعض كصورة حبل أحكم فتله ، وصار حاله حال الأزل – الذئب الضعيف قليل اللحم – الذى ظلت المفاوز والصحارى تتداوله ، وتتلقفه فيما بينها لخفته وضعف بنيانه ، وقد ظل هذا الذئب جائعاً وخرج يستقبل الريح متشمماً أثر فريسة ؛ فمرة يخوت منقضاً كما ينقض

الصقر ، ومرة يعسل ويسرع فى مشيته مطاردا ما يتوهم أنه صيد ، ولكنه يعود خائب الرجاء .

فلما مطله القوت من حيث قصد إليه دعا نظائره مستغيثاً صارخاً مما يلقى من الهلاك ؛ ولكنه لم يجد لديها جواباً إلا الحال الدالة على الضمور والنحول من شدة الجوع شبه الدائم ، وعرف أن الفشل الذى أصابه فى الحصول على ما يقتات به من الزاد قد أصابها أيضاً فبدت نحلاً مهلهلة فى سيرها ، لا تكاد تتماسك حتى صارت تضطرب كسهام القمار بكفى ياسر ؛ أى من يلعب به .

وهذه الأبيات الخمسة تمثل صورة شعرية رامزة موحية ، ولوحة فنية مجسمة لحال الشاعر التى رمز لها بحال الذئب الجائع الذى يبحث عما يسد رمقه ، ويحفظ حياته فلا يجده ، وهذا قريب مما يعرف بالإسقاط فى النقد الحديث . وجاءت الألفاظ معبرة فى إيقاعها ومعناها عن هذا المنظر المثير للشفقة ؛ فكلمة (تهاداه) يدل إيقاعها على أن هذا الجسم النحيل صار ككرة تتلاعب بها الصحراوات ، وتتناقلها المفاوز فيما بينها ، وكذا كلمة (لواه) تدل على المحاورة والمناورة والخداع والامتناع من جهة القوت الذى يماطل (الذئب الشاعر / الشاعر الذئب) من أية جهة قصده ، وفى أى وقت سعى إليه ، ولفظة (مهلهلة) المتكررة المقاطع تدل على عدم التماسك بين أوصال البدن ، فيبدو وكأن كل جارحة فيه وكل عضو به يتحرك بمعزل عن الآخر ، وهذا ما يؤكده لفظ (تتقلقل) فى نهاية البيت بتكرار المقطع الذى يوحى بالاضطراب وعدم الثبات .

كما أن مكونات الصورة من الحركة فى (تغار وتفتل) ، (تهاداه التنائف) ، (يعارض الريح هافياً) ، (يخوت ... ويعسل) ، (لواه ... أمّه) ، (تتقلقل) ، واللون المتمثل فى مناظر البيئة الصحراوية وحيواناتها القليلة كصفرة (التنائف ؛ أى الصحراوات والمفاوز) ، واللون الأطحل للذئب - وهو لون بين الغبرة والبياض - و (شيب الوجوه) يكشف عن بياض شعر الوجه ، وهو وصف خِلقى ، لأنه لون من ألوان وجوه الذئاب ، والصوت يتمثل فى تصفيق الرياح ، وعواء الذّئاب الذى يشبه الأنين من شدة آلام الجوع ، وكذا عواء الذئاب الأخرى التى أجابته بنفس النبرة الآسية الحزينة .

وانظر إلى صورة أخرى للشنفرى تكشف عن قسوة الفقر فى هذه البيئة الصحراوية المجدبة ، وذلك حيث يقول :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها ∴ وأبلته التى بها يتبلُ
دعست على غطش وبغش وصحبتى ∴ سُعار وإرزيز ووجْر وأفكلُ[٢٣]

فصورة هذه الليلة التى عاشها الشاعر فى هذه البيئة تكشف عما

يكره العربى ويتشاءم منه ؛ إذ إنه من الشقاء أن يُضطر - من قسوة بـــرد هذه الليلة - أن يضحى بأعز ما يملك فى الدفـــاع عـــن النفـــس والمـــال والعرض ؛ فيصطلى ويستدفئ بقوسه ونبله ، " وإذا اصطلى العربى بقوسه وسهامه لشدة البرد فليس وراء ذلك فى الشدة شىء "(٢٤) .

وصحبة الشاعر فى هذه الليلة القاسية (السعار) - شدة الجوع وهو بضم السين مأخوذ من حر النار واستعارها - ، ومن بين صحبتـــه أيضـــا (الإرزيز) - البرد الشديد - و(الوجر) - الخوف - ، وكذا (الأفكل) - الرعدة والارتعاش - . كل هذه الأحوال القاسية الرهيبة تمثـــل وحوشـــا ضاريـــة تنهش فى بدنه ولا تفارقه . وهو يدعس - يسير - فى الغطـــش - الظلمـــة الشديدة - والبغش - المطر الخفيف المتصل - .

وقريب من هذه الصورة ما رسمه سُليك بن عمرو المشهور بسليك بن سُلكة اسم أمه الأمة السوداء ، وذلك حين يصف حالة الجوع التى كـــان عليها فى مبدأ صعلكته :

وما نلتـــها حتـــى تصعلكـــت حقبـــة ∴ وكدت لأســـباب المنيـــة أعـــرفُ
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى ∴ إذا قمت تغشانى ظلال فأسدفُ(٢٥)

فلم ينل الشاعر غنيمته من هؤلاء الأغنياء الأشحاء إلا عن طريـــق الخطار ؛ فكم من مرة كان قريباً من المنية والهلاك ، وكاد أن يعرف أسباب إختزامها ، ويعلق فى شراكها . ويصور ما عاناه من الجوع قبـــل أن ينـــال هذه الغنيمة ؛ فيقول : إنى قد تصعلكت وافتقرت رغبة مـــن الزمـــن ، قـــد أصابنى الجوع بالضر الشديد فى زمن الصيف . واختيـــار الشـــاعر لزمـــن الصيف كان عن وعى فطرى بدلالة اللغة ؛ إذ إن طبيعة البيئـــة فـــى زمـــن الصيف تتصف بكثرة الدر واللبن نتيجة لما تتمتع به المراعى من خصوبـــة وازدهار ؛ فالمفارقة هنا أنه يعانى من الجوع المميت فـــى أفضـــل مواســـم الخير ، وهذا ما يكشف عن قهر المجتمع ، وانعدام العدالة فيه بسبب عـــدم التكافل بين الأغنياء الموسرين والفقراء المعدمين .

ويستكمل الشاعر الكشف عما يعانيه ببراعته فى التصوير الشـــعرى حينما يقول (إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف) ؛ إذ يصور حالة غياب الوعـــى بسبب الجوع ، وما يصحبها من ضبابية وظلال تتغشـــاه فيســـدف ويســـقط أرضاً، وتظلم الدنيا أمام عينيه ، ويكون ساعتئذٍ أقرب للموت منه للحياة .

فيا لها من صورة رائعة لمجتمع الصحراء الفقير ؛ إذ لا نظير لـــها فى دقة الوصف ، وصدق التعبير ، وقوة الرمز ، وشدة الإيحاء ؛ وكيـــف لا تكون كذلك وقد صدرت عمن عان قسوة هذه البيئة ، وخـــبر مـــا فيـــها ، وعاش أجواءها ، وعرف تقلبات أحوالها .

فليس عجيباً أن تكون حياة الصعاليك كلها غارات ، وأن تكون أيامهم كرّا وفرّا وعدواً تحت وطأة الجوع والفقر ؛ فقديماً قالوا : " اتقوا صولة الكريم إذا جاع ، وبطر اللئيم إذا شبع "[٢٦] . ويجب ألا يفوتنا أن هؤلاء الصعاليك عاشوا فى مجتمعات قبلية تفهم العدل والحق بصورة مختلفة عن مفهومنا نحن لهم ؛ فالعدالة عندهم لم تكن تتحقق وتؤخذ إلا بالقوة ، وظل الأمر عندهم على هذا النحو إلى أن جاء الإسلام ، وعالج توزيع الثروة معالجة عادلة ، تحول دون تكديسها فى يد فرد واحد أو فى حوزة أفراد قلائل؛ فقضى بذلك على كل ظلم أو أثرة أو استئثار[٢٧] .

ثالثاً : صورة الجانب النفسى

إن حياة قامت على القهر والظلم – كما وضح لنا فى جانبيها الاجتماعى والاقتصادى – لا ريب أنها ستخرج لنا مثل هذا النموذج الإنسانى المتمرد الثائر ؛ فإن من لم يذق طعم الراحة أو الدعة ، ومن لم يعش حياة الاستقرار والأمان أو الانتماء الاجتماعى ، ومن خرج للحياة فوجد أهلها ما بين أناس يموتون تخمة ، وآخرين يموتون جوعاً ، وقدر له أن يكون من الجانب الذى وقع عليه الغبن لجدير به أن يحمل على عاتقه أن يأخذ من الظالم للمظلوم حتى يلاقى الذى كل امرئ لاقى .

وقد جاء فيما أورده صاحب الأغانى عن الشنفرى أنه كان من الأواس بن الحُجْر ، وأسرته وهو صغير بنو شبابة بن فهم ، فلم يزل فيه حتى أسرت بنو سلامان رجلاً من بنى شبابة بن فهم ؛ ففدته بنو شبابة بالشنفرى ، فكان الشنفرى فى بنى سلامان لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذى كان فى حجره ، وكان السلامى قد اتخذه ولدا ، وأحسن إليه وأعطاه ؛ فقال لها الشنفرى : اغسلى رأسى يا أخية ، وهو لا يشك فى أنها أخته ؛ فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً حتى أتى الذى اشتراه من فهم ؛ فقال له الشنفرى : اصدقنى ممن أنا ؟ قال : أنت من الأواس بن الحُجْر ، فقال : أما إنى لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتمونى ، وقال الشنفرى للجارية السلامية التى لطمته ، وقالت لست بأخى :

ألا ليت شعرى والتلهف ضلة ∴ بما ضربت كف الفتاة هجينها؟
ولو علمت قعسوس أنساب والدى ∴ ووالدها ظل تقاصر دونها
أنا ابن خيار الحُجْر بيتاً ومنصباً ∴ وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها[٢٨]

ففى الأبيات تصوير للاستعباد غير المستحق من هذه الفتاة السلامية وقومها للشنفرى ، على الرغم من حقيقة نسبه الرفيع الذى يتقاصر معه نسبها، ولكن هيهات أن يعترف له هذا المجتمع الظالم بذلك .

ومن هذا الموقف الاجتماعى الظالم انطلق الشنفرى سالكاً حياة الصعلكة حتى لقى حتفه ؛ فقد آل على نفسه أن يجرع هذه المرارة التى تجرعها جميع من حكم عليه بهذا المصير ، وبخاصة بنو سلامان الذين استعبدوه وأذلوه ، فيقول له :

وإنى لأهوى أن ألف عجاجتى ∴ على ذى كساء من سلامان أو بُرْدِ
وأصبح بالعضداء أبغى سراتهم ∴ وأسلك خلا بين أرباع والسردِ[٢٩]

فهو سيحيط بغاراته كل سلاماتى ، ويطلب السادة والسراة فى كل موطن ، ويسلك لهم كل خل نافذ ، وكل سبيل سالك حتى تقر عينه منه ، وانظر إلى قوله (ألف عجاجتى) وما فى هذه الكناية من تجسيد معنى الإحاطة، والعجاجة غبار الحرب ، كما أنه صور العجاجة بإضافتها إلى نفسه بحبل المشنقة الذى سيطوق به رقابهم .

وظل الشنفرى منذ ذلك الحين آلفاً للهموم ، يصاحبها وتصاحبه ، ويصارعها وتصارعه ؛ فيقول مصوراً حياة القلق النفسى الذى لا يفارقه :

وإلف هموم ما تزال تعودهم ∴ عياداً كحمى الربع أو هى أثقلُ
إذا وردت أصدرتها ثم أنها ∴ تثوب فتأتى من تحيت ومن علُ
فإما ترينى كابنة الرمل ضاحيا ∴ على رقة أحفى ولا أتنعلُ
فإنى لمولى الصبر أجتاب بزه ∴ على مثل قلب السمع والحزم أنعلُ[٣٠]

فالصورة فى البيتين الأولين تكشف عن القلق النفسى الذى يعانى الشاعر منه ؛ فالهموم تصاحبه ؛ بل تسرى تحت جلده كحمى الربع ، وهى نوع من الحمى تأخذ صاحبها يوماً وتتركه يومين ، والمراد أن الهموم معتادة عليه ، وأنها دائمة التردد والانصراف فى نظام يكاد يكون ثابتاً ، وعلم النفس يؤكد صحة هذا المعنى بالنسبة للمصابين بالقلق النفسى أو الضيق المعبر عنه بالهموم[٣١] .

كما أنها تحيط به من كل طريق فى الورود والإصدار – أى القدوم والرجوع – وتأتيه من كل الجهات ، وتصغير لفظ (تحت) يوحى بملاصقتها إياه ، وكذلك إطلاق لفظ (العلو) ليشمل كل الأماكن المرتفعة عما تحته .

ومضمون تصويره فى البيتين الأخيرين يدور حول حالة الفقر الشديد الذى يعيش فيه الشاعر تصريحاً وتلميحاً ؛ فمن التلميح أنه يكاد يكون عارى الجسد من الثياب كأنه حية تتحرك بجلدها الأملس المكشوف دون ساتر كأغلب الحيوانات ذات الشعر والوبر ، والتشخيص واضح فى قوله (ابنة الرمل) . وقوله (على رقة) كناية على الفقر الشديد ورقة الحال ، ومن التصريح بفقره إنه مضطر أن يمشى حافياً دون نعل .

ولكن الشاعر – على الرغم من ذلك الفقر المدقع – يملك زمام الصبر على الجوع ؛ لأنه مولاه وصاحبه المتحكم فيه ، وكيف لا يكون كذلك وهو يملك قلباً شجاعاً كقلب السمع – ولد الذئب – وهو يتخذ الحزم نعلاً ، وهذا دليل ثقة بالنفس ، وحكمة فى التصرف .

وظل الشنفرى ذا إرادة جبارة فى صراعه مع الحياة ؛ فلا الهم والقلق ، ولا الجوع والسغب ، ولا الحر والبرد ، ولا شىء قط استطاع أن يحول بينه وبين ما عقد العزم عليه من الانتقام حتى لقى حتفه فى إباء وشمم، وعدم اكتراث بالحوادث ، ولا مبالاة بالموت .

وعروة بن الورد العبسى يصور فى شعره حالة الاغتراب الروحى التى يعانى منه الصعاليك ؛ حيث إنه قد عانى مثله من النبذ والمعاملة القاسية، كما عانى من الإحساس بالدونية من جهة أمه التى كانت من قبيلة نهد قليلة الشأن ؛ فصور حالة الاغتراب النفسى هذه فى مطلع قصيدته التى يقول فيها :

دعينى للغنى أسعى فإنى ∴ رأيت الناس شرهم الفقيرُ

وهى القصيدة التى طلب عبد الله بن جعفر بن أبى طالب من معلم ولده ألا يروّها لهم ؛ لأنها تدعو إلى الاغتراب[٣٢] .

فى هذا المطلع ما يوضح نظرة المجتمع تجاه الفقير ؛ فهى نظرة احتقار واشمئزاز ، ترى الفقير أشد الناس شراً ، وأكثرهم جرماً ؛ مما جعل الشاعر يسعى بكل قوته لإغناء هؤلاء الفقراء ، وسد جوعتهم ، وتجنيبهم نظرة الاحتقار التى يرمقهم بها الأغنياء ، ومن هنا حق لعروة أن يدعى بأبى الصعاليك .

وانظر إلى حرصه الدؤوب على حسن الذكر فى حياته وبعد موته حينما يقول :

أحاديث تبقى والفتى غيرُ خالدِ ∴ إذا هو أمسى هامة فوق صُيّرِ[٣٣]

وتنبع الصورة فى هذا البيت من الفكرة الأسطورية القديمة فى الفلكلور العربى التى ترى أن هامة أو طائراً يظل يصرخ فوق قبر القتيل يقول (اسقونى .. اسقونى) مطالباً بالثأر ، ولا يهدأ حتى ينال أهل القتيل ثأره من قاتله . وإزاء فكرة الخلود التى تؤرق الشاعر نراه يدرك أن سبيل الخلود الوحيدة هى سبيل العمل الإنسانى ؛ ولذا فهو يحاول أن يغتنم فرصة الحياة ليحقق صبوة روحه الجامحة إلى المجد والخلود بطيب الذكر وحسن السيرة.

ونجد أيضاً فى شعر تأبط شراً ذاتاً قلقة مغتربة غير قادرة على التكيف مع المجتمع ؛ فهى تخاصمه ، وتنفر منه على نحو ما صوّر فى قافيته التى افتتح بها المفضل الضبى اختياراته ، وذلك حيث يقول :

بل من لعذالة خذالة أشبٍ ∴ حرّق باللوم جلدى أى تحراق
عاذلتى إن بعض اللوم معنفة ∴ وهل متاع وإن أبقيته باق
إنى زعيم لئن لم تتركوا عذلى ∴ أن يسأل الحى عنى أهل آفاق
لتقرعن علىّ السن من ندم ∴ إذا تذكرت يوما بعض أخلاقى[٣٤]

إنها ذات يحاصرها المجتمع ويحرقها عذلاً ولوماً ، ويحاول كبح

جماحها ، وردها إلى منظومة الأفكار والعادات الاجتماعية السائدة آنذاك – على الرغم مما فيها من قهر وظلم – فتجادل فى ذلك ، وتغضب وتنذر بالقطيعة والفراق . إن علاقتها بالمجتمع علاقة خصومة وتنافر ؛ فلكل منهما رؤيته وقيمه التى تختلف عن رؤية الآخر وقيمه .

وتكمن روعة الصورة فى تجسيم اللوم . وتشبيهه بالنار من جهة ، والتضعيف فى الفعل (حرّق) ، وذكر المفعول المطلق (تحراق) من جهة أخرى يفيد تكرار الآثار المؤلمة بتكرار فعل اللوم الحارق ، وتؤكد هذا المعنى صيغ المبالغة (عذالة – خذالة – أشب) ، وكذا ذكر تاء التأنيث التى تدل على الكثرة والمبالغة فى الصيغتين الأوليين ، والأشب على وزن (فَعِل) بمعنى المخلط فى لومه ، كثير الاعتراض والمخالفة لصاحبه .

وخلاصة ذلك كله أن هؤلاء الصعاليك الفقراء الجياع المنبوذين المحتقرين ، حتى أن أحدهم لا يساوى – فى نظر قومه – عنزاً جرباء قد بلغ بها الظلم حداً لا يمكن السكوت معه ؛ فكانوا مجبرين على السير فى أحد طريقين : فإما قبول الحياة الذليلة بين قومه ، وإما شق الطريق نحو حياة كريمة تحيط بها العقبات ، وأمرها صعب تحفه المخاطر ؛ حتى يفرضوا أنفسهم على هذه القبائل بالقوة ، وينزعوا لقمة العيش انتزاعاً ممن حرمهم إياها ، دون أن يبالوا بالوسيلة التى يتخذونها ؛ فلا الخطار يمنع ، ولا القتل فى ميادين الحرب والغارات يصدهم .

وقد صور لنا أميرهم عروة بن الورد نفسية الفريقين المتناقضين أدق تصوير فى رائيته الرائعة ؛ فيقول فى شأن الفريق الأول الذليل المستكين:

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله ∴ مضى فى المُشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى فى نفسه قوت ليلة ∴ أصاب قِراها من خليل ميسّر
ينام عشاء ثم يصبح قاعداً ∴ يحت الحصى عن جنبه المتعفر
يعين نساء الحى ما يستعنه ∴ فيمسى طليحاً كالبعير المحسّر(٣٥)

فصورة هذا الفريق تكشف عن صُعلوك حقير النفس ، إذا أظلم عليه الليل هرع إلى المجازر التى ألفها وألفته ؛ ليتحسس سقط الطعام وخسيسه ، وينحت ما تبقى فى المشاش – رؤوس العظام – وقد وصل به الحال من حقارة النفس أن يرى الغنى كل الغنى فى الفوز بقوت ليلة يلقى إليه من صديق غنى .

كما أنه دنئ دثور مسالم ينام الليل – والصعاليك الحقيقيون ليلهم ساهر – ثم يصبح قاعداً بأعقاب المنازل يحت ما علق ببدنه العارى من الحصى والغبار ، ويكون تحت إمرة نساء الحى يعينهن متى ما طلبن منه ذلك ويحمل عنهن الأثقال ، ويقوم لهن بالأعمال الوضيعة الحقيرة التى

يترفع الرجال من القيام بها فيأتى عليه المساء وقد صار طليحاً - من شدة التعب - كالبعير الذى أصابه الكلل والتمزق من كثرة الأحمال ، ويغط فى نوم عميق ، ويصبح على ما أمسى من جديد ، ويظل يمضى فى دائرة حقيرة كلها مهانة وضيعة وخسة .

وإيحاء الألفاظ داخل الصورة يكشف عن هذا المعنى من مثل (مضى فى المشاش) ، (آلفاً كل مجزر) ، (بعد الغنى ... قوت ليلة) ، (يحت الحصى عن جنبه المتعفر) ، (يمسى طليحاً) . وصورة النفور من الشاعر تجاه هذا الصعلوك تبدو واضحة فى قوله أول الأبيات (لحى الله) ، والتشبيه فى قوله (كالبعير المحسر) .

أما الفريق الآخر محمود السيرة ، رفيع المنزلة فقد صور الشاعر حاله فى الرائية ذاتها ؛ حيث يقول :

ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه ∴ كمثل شهاب القابس المتنوّر
مطلاً على أعدائه يزجرونه ∴ بساحتهم زجر المنيح المشهّر
فذلك إن يلقَ المنية يلقها ∴ حميداً ، وإن يستغن يوماً فأجدر[٣٦]

فهذه صورة أخرى للصعلوك على خلاف ما سبق عند نقيضه ، ويدل على ذلك استخدام الشاعر للأداة (لكن) الدالة على الاستدراك الذى يلغى ما قبله وكأنه أمر يجب أن نتجاوزه ؛ فالصعلوك الحقيقى أبى النفس لا يرضى الهوان ، وجهه متهلل مستبشر ، مضىء بالشمم ، متوهج بألق الاعتزاز ، وتكشف عن هذا الصورة المركبة من التشبيه والكناية فى قوله (صحيفة وجهه كمثل شهاب القابس المتنور) ؛ لأن العرب تكنى عن صيانة العرض وكرامة النفس ببياض الوجه .

وهذا الصعلوك الكريم لا ينام ليله ؛ لأنه يظل يقظاً مطلاً على الأعداء ، لا يكف عن الغارات ؛ فلا يجدون مفراً سوى الصياح به ، وزجره عن بعد ، وطلبهم منه أن يكف عنهم شره ، ويقيهم ويلات بطشه ، وهذا يشبه صياحهم بقداحهم أثناء لعب الميسر . وهذا الصعلوك الكريم جدير بالحمد إن هلك وفاز سهم المنية ، كما أنه جدير بالنعمة والغنى إذا فاز سهمه ونجا من الهلاك .

وهكذا نجد أن الثورة التى اجتاحت قلوب هؤلاء الصعاليك نبعت من الإحساس النفسى العميق بالظلم والقهر من معاملة المجتمع لهم .

رابعاً : صورة الجانب الأخلاقى

أهم قيمة أخلاقية صورها الصعاليك فى شعرهم هى قيمة الشجاعة والإيمان بحتمية الفناء ؛ لأنهم حينما فقدوا الأمان والراحة فى مجتمعاتهم ، وعاشوا القهر والظلم طفقوا يطبقون العدل المفقود بكل ما يملكون من وسائل، وماذا يملك هؤلاء الفقراء المغلوبون على أمرهم ، المنبوذون من مجتمعهم المخلوعون عنه سوى الاعتماد على قوتهم الذاتية .

يصور هذا أحد الصعاليك وهو عمرو بن برّاق الذى لامته من تخشى عليه الهلاك فى الغارات ، وطالبته بالابتعاد عن الصعاليك ؛ فرد عليها قائلاً :

تقول سُليمى لا تعرّضْ لتلفة ∴ وليلك عن ليل الصعاليك نائمُ
وكيف ينام الليل من جل ماله ∴ حسام كلون الملح أبيض صارمُ
صموت إذا عض الكريهة لم يدع ∴ لها طمعاً طوع اليمين ملازمُ
ألم تعلمى أن الصعاليك نومهم ∴ قليل إذا نام الدثور المسالمُ[٣٧]

فصورة الشجاعة فى هذه الأبيات تتمثل فى ملازمة حياة الحرب والغارات المتمثلة فى أهم أدواتها وهو السيف الذى لا يفارق صاحبه ، وهو ملازم له وطوع يمينه؛ بل هو شخص ينافح عنه ويعض الكريهة ، ويرد طمعها فى أن تنال من صاحبه ، كما أن الصعلوك لا ينام ليله ؛ لأنه يتوقع المكروه فى كل حين نتيجة افتقاد الأمان فى مجتمعهم الذى لا يعترف إلا بالقوى اليقظ،ولا يعترف بالدثور المسالم الذى امتلأ قلبه بالضعف والوهن .

قد استخدم الشاعر التشخيص ليصور هذه القيمة العظيمة ، قيمة الشجاعة التى تعتبر أهم القيم الأخلاقية للصعاليك ؛ فالليل ينام ، والسيف يصمت ويعض الكريهة ويصارعها ، والكريهة - وهى أمر معنوى - تطمع فى الإهلاك والإفناء ، كما أن أسلوبى الاستفهام الإنكارى والتقريرى فى قوله (كيف ينام) ، وقوله (ألم تعلمى) تبعث الحيوية فى الصورة ، وتزيدها قوة وتقريراً فى النفوس ، وتحرك المشاعر تجاه قيمة الشجاعة والإقدام .

وتأبط شراً لا يألم لفقد الحبيب كما يفعل أهل الراحة والدعة والترف، ولكنه يعول على الرجل الكامل صاحب الخلق الكريم من الشجاعة والكرم والحزم والذكاء ؛ فيقول :

ولا أقول إذا ما خلة صرمت ∴ يا ويح نفسى من شوق وإشفاقِ
لكنما عوّلى إن كنت ذا عِوَلٍ ∴ على بصير بكسب الحمد سبّاقِ
سباق غايات مجد فى عشيرته ∴ مرجّع الصوت هدّاً بين أرفاقِ
عارى الظنابيب ، ممتد نواشره ∴ مدلاج أدهم واهى الماء غسّاقِ

حمّـال ألويـة ، شـهّاد أنديـة ∴ قـوّال محكمـة ، جـوّاب آفـاق
فذاك همى وغزوى أستغيث بـه ∴ إذا استغثتّ بضافى الرأس نعّاق[٣٨]

فالإضراب عن التعويل على أمر حبيبة صارمة مفارقة إلى التعويل على الماجد الفذ من الرجال الذى رسم له الشاعر صورة فذة فـى الشـعر العربى يؤكد حرص الشاعر على قيمة الشجاعة وجعلها فوق كـل القيـم . فهذا الشجاع أقرب إلى حالة الصعلوك المحارب الغازى الذى يسبق غايـات المجد، وله الكلمة المسموعة فى عشيرته وأهله ، وهو المدلاج الذى يسافر فى الليل الأدهم شديد الظلام واهى الماء - كثير المطر - ، وهـذا الرجـل ممتدح بقلة اللحم والفروسية عارى الظنابيب - واضـح عظـام السـاق - ظاهرة نواشره وعروق ذراعه ، وهو حامل لواء القوم ، وله الحكمة فـى القول ، والحضور فى المجامع والمنتديات ، ويجوب الآفاق غزوا وارتحـالا ؛ فذاك من يهتم به الشاعر ويقصده ، ويستغيث به إذا اسـتغاث الآخـرون بالراعى المستكين ذى الشعر الكثيف الذى ينغق ويصيح بغنمه .

وقد استخدم الشاعر فى تصوير الشجاع الماجد ألفاظاً موحية كمـا وضح من صيغ المبالغة (سباق - مرجع - مدلاج - حمال - شهاد - قـوال - جواب) ، كما اعتمد على دقة الوصف الحسى والمعنوى له فى قوله (بصـير بكسب الحمد - عارى الظنابيب ممتد نواشره - مدلاج أدهم واهـى المـاء غساق - حمال ألوية - شهاد أندية - قوال محكمة - جـواب آفـاق - ذاك همى وغزو) .

ويكره تأبط شراً أن يوصف بالضعف ، وعدم الانطلاق إلى الغارات، وإن كان هذا الوصف نابعاً من بلوغه مرحلة الشيخوخة حيث وهن القـوى وقلة الحيلة ، ويرد هذا الظن على سليمى التى اتهمته بذلك ؛ فيقول :

تقـول سـليمى لجاراتهـا ∴ أرى ثابتـاً يَقنـاً حوقـلا
لها الويل ، ما وجـدت ثابتـاً ∴ ألـفَّ اليديـن ولا زُمّـلا
ولا رَعِش الساق عنـد الجـراء ∴ إذا بـادر الحملـة الـهيضلا
يفـوت الجيـاد بتقريبـه ∴ ويكسـو هواديَـها القسـطلا[٣٩]

فما هو باليفن الحوقل - الشيخ الفانى الضعيف - وما وجـده أحـد مكتوف اليدين ، ولا زملاً قد ملأه الضعف والجبن والفزع ، وما كانت سـاقه رعشاء عند العدو والجراء إذا حمل على الجيـش الـهيضل العظيـم ، وإذا سابق بسرعته وتقريبه الجياد ؛ بل هو يسبقها ويكسو هواديها - صدورهـا - قسطله؛ أى الغبار الذى تثيره قدماه .

والشاعر قد استطاع من خلال انتقاء ألفاظه وأساليبه أن يبرز صورة شجاعته ، وبقية قوته التى لم تذهب بعد - كما زعمت صاحبته - فالمبالغة فى (يفنا حوقلا) ، (زملا) ، (رعش) تبرز نواحى الضعف الذى يعانيها الشيخ المسن ، قد نافاها الشاعر عن نفسه . وقوله (لها الويل) يكشف عن شدة غضبه من قولها ، والكناية فى قوله (ويكسو هواديها القسطلا) تؤكد سرعته التى عُرف بها ؛ بل عُرف بها جميع الصعاليك من الحفاة العدائين كسليك بن سُلكة والشنفرى وتأبط شراً وغيرهم[٤٠] .

وقد ظل الصعاليك على شجاعتهم هذه ينتزعون قوتهم من فم الهلاك، ضاربين أكباد البوادى والقفار ، وراكبين الذعر والأهوال فى شجاعة وفروسية لا تقل عن شجاعة وفروسية أولئك السُّراة المغاوير ، إن لم تكن تفوقها وتعلو عليها ؛ لأنهم فقدوا كل شىء من حياة الاستقرار فلا يبكون على شىء ، وهم ليسوا شريرين بطبعهم كما اتهمهم " كارلو نالينو " بقوله :

" كانت أخلاقهم وعوائدهم أقرب للهمجية المحضة "[٤١] . ولكن الظروف الاجتماعية التى عاشوا فيها هى التى أجبرتهم على هذه الوجهة ؛ فكما يقول تأبط شراً :

ولا أتمنى الشرَ والشرُ تاركى ∴ ولكن متى أحملْ على الشر أركبِ[٤٢]

فلا أحد يسعى إلى الشر ، ولا أحد يتمناه ، والشاعر يرى أنه يحمل على الشر حملاً ، ولكن إباء نفسه أن يضام ، وشجاعة قلبه أن ينكسر تجعله يمتطى صهوة الشر ، ويعلق بطائر الهلاك ؛ فالأمر بشرطه : متى اضطره الشر إلى السير فى ركابه لم يجد بُداً من ذلك ؛ فهذا المجتمع المتقلب الأحوال، وما فيه من مخاطر تدفع إلى الشر دفعاً هو السبب فى هذا الشر المحدق بهؤلاء القوم ؛ فكما يقول " العقاد " : " لن يكون هناك فضل بشجاعة أو همة أو جود لو زالت المخاطر "[٤٣] .

فخير دليل على عدم تأصّل الشر فى هذه النفوس قول عمرو بن بَرّاق :

متى تجمع القلب الذكى وصارماً ∴ وأنفاً حميّاً تجتنبْك المظالمُ
ومن يطلب المال الممنّع بالقنا ∴ يعش ذا غنى أو تخترمه المخارمُ
وكنتُ إذا قوم غزونى غزوتُهم ∴ فهل أنا فى ذا يالهمدانَ ظالمُ
فلا صلح حتى تعثر الخيل بالقنا ∴ وتضرب بالبيض الرقاق الجماجمُ[٤٤]

فالصورة فى الأبيات تكشف عن أن الصعلوك لا يسعى للحرب ، ولا هو بمصاص دماء متعطش للشر ، ولكنه مضطر إلى ذلك ؛ فهو

يرى – لما يموج به هذا المجتمع من اضطراب – أن القلب الذكى الشجاع ، والسيف الباتر ، والأنف الأبى الحمى هى أهم ما يجب التحلى به لدفع الظلم والقهر ، وانظر معى إلى روعة التشخيص فى قوله (تجتنبك المظالم) ؛ فكأن المظالم – لا فاعلها – هى التى تتحاشى من يتحلى بهذه الصفات . كما أنه لا سبيل للحفاظ على الممتلكات والأعراض فى هذا المجتمع إلا استخدام القنا ؛ فيقع واحد من أمرين : إما زيادة الممتلكات والاستغناء من المال ، وإما أن تخترم المهالك هذا المغامر الذى لا يخشى الموت .

وقريب من هذا قول الشنفرى :

وإنى لحلو إن أريدتْ حلاوتى ∴ ومرّ إذا نفس العزوف استمرّتِ
أبىّ لما آبى ، سريع مباءتى ∴ إلى كل نفس تنتحى فى مسرتى[٤٥]

فالمرارة التى يمضغها الشاعر ليل نهار على مضض هى من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، واستكباره عليه وجبروته فى معاملته ؛ فما يقوم به الشنفرى وإخوانه الصعاليك هو رد فعل لما جوبهوا به من مجتمعهم ، ولكنهم مع هذا سريعو المباءة والرجوع إلى من يلقون منه المودة ، وإلى من يحرص على مسرتهم ، وينحو وجهة رضائهم .

والقيمة الأخلاقية الأخرى التى نبعت من عامل الفقر الشديد فى هذه البيئة المجدبة هى قيمة الكرم والعطاء ، وقد كان شعر الصعاليك بعامة ، وشعر عروة بن الورد بخاصة معبراً عن هموم النفس ، وإصلاح المجتمع ، وداعياً إلى الأخلاق الحميدة ، وعلى رأسها فضيلة الإيثار والبذل والعطاء ؛ فيقول عروة كاشفاً عن ذلك المعدن الطيب ، مخاطباً من يسخر منه لنحافة بدنه :

إنى امرؤ عافى إنائى شركة ∴ وأنت امرؤ عافى إنائك واحدُ
أتهزأ منى أن سمنتَ ، وأن ترى ∴ بجسمى مسّ الحق ، والحقُ جاهدُ
أقسّم جسّمى فى جسوم كثيرةٍ ∴ وأحسو قِرَاح الماء ، والماءُ باردُ[٤٦]

فعروة الملقب بأبى الصعاليك قد أنهك جسده الحرص على إسعاد الآخرين برعاية ضعفائهم ، وتفقد أحوال مساكينهم؛بل بلغ به الإيثار أن يفديهم بروحه ودمه حينما يعرض نفسه للهلاك من أجلهم.ولم يكتفِ بذلك فكانوا حينما يشتد الجدب يترك لهم ما تبقى لديه من لبن وطعام،ويكتفى هو بالماء القراح البارد الذى يقدد الأمعاء فى الشتاء، ويأتى بما يؤكد ذلك حيث يخاطب الساخر الذى يسخر منه لنحافة بدنه بقوله(إن امرؤ عافى إنائى شركة)كناية عن كثرة طالبى المعروف الذين يفدون على حظيرة الصعاليك

التى أعدها عروة لإعالتهم ، على حين أن طالب المعروف من هذا الساخر شخص واحد ، وهذا ما جعل عروة مكدود البدن من (مس الحق الجاهد) الذى يقصد به حق الرحم والقرابة من الرعاية والمعروف لكل ضعيف طالب للمأوى والطعام .

وانظر معى إلى الصورة الرائعة فى قوله (أقسم جسمى فى جسوم كثيرة) ؛ فكأنه حين يحرم نفسه من القوت ، ويؤثر به الآخرين يتنازل عن جزء من جسده ، يفترض تكونه من هذا الطعام .

ومن هنا كان عروة بن الورد قائد الصعاليك يفوق فى كرم أخلاقه ، وبره بالفقراء وكثرة جوده كل وصف ؛ حتى قالت فيه زوجه : " والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفاً ، وأقل فحشاً ، وأجود يداً ، وأحمى حقيقة"[٤٧] . والحقيقة - عند العربى - هى أغلى ما يملكه الإنسان وهى عرضه وكرامته .

وقريب من هذا قول أبى خراش الهذلى :

وإنى لأثوى الجوع حتى يملنى ∴ فأحيا ولم تدنس ثيابى ولا جرمى
وأصطبحُ الماء القراح فأكتفى ∴ إذا الزاد أضحى للمزلج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه ∴ وأوثر غيرى من عيالك بالطعمُ
مخافة أن أحيا برُغم وذلة ∴ فللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رُغم[٤٨]

وقصة هذه الأبيات أن أبا خراش الهذلى أقفر من الزاد أياماً ، ثم مر بامرأة من هذيل سخية شريفة ؛ فأمرت له بشاة فذبحت وشويت ، فلما وجدت بطنه ريح الطعام قرقرت ؛ فضرب بيده على بطنه وقال : إنكِ لتقرقرين لرائحة الطعام ، والله لا طعمتُ منه شيئاً ، ثم قال : ياربة البيت هل عندك شىء من صبر أو مرّ ؟ قالت : تصنع به ماذا ؟ قال : أريده ؛ فأتته منه بشىء فازدرده ، ثم أهوى إلى بعيره فركبه ؛ فناشدته المرأة فأبى ، وقال هذه الأبيات .

فهو يشخص الجوع ؛ فيسكنه ويناومه فى بطنه فيثوى ويرقد مرة بعد مرة ، حتى يصاب الجوع بالملل فيترك الشاعر دون تنغيص ، وذلك حتى لا تدنس ثيابه ولا جرمه - جسده - وفى هذا كناية عن عفة النفس ؛ فلا يقال عنه إنه أكل طعام هذه المرأة ، وترك أطفالها جوعى فى أيام الجهد والبلاء .

وإذا كان المزلج - الدنىء - يتلذذ بالطعام ولا يهتم لأمر الآخرين فإنه يفضل قراح الماء تصطبح به معدته فى أول زاده عن ملامة الناس ، ويقسو على أمعائه التى يشبهها بالشجاع من الثعابين لكثرة التوائها بعضها فوق بعض من شدة الجوع ، فيردها خائبة حتى يؤثر بهذا الطعام عيال هذه

المرأة . كل ذلك خوفاً منه أن يعيش على رُغم – مذلـــة وهـــوان – يـــرى الموت خيراً منه .

ومن القيم الأخلاقية التى تكشف عنها الصورة الشعرية فـــى شـــعر الصعاليك الإباء وعزة النفس التى ظهر بعض منها فيما صورتـــه الأشـــعار السابقة ، وتبدو أشد ظهوراً فى قول الشنفرى :

أديم مِطال الجـــوع حتـــى أميتَـــه ∴ وأضرب عنه الذكر صفحا فـــأذهلُ
وأستفُّ تُرب الأرض كيلا يرى لـه ∴ عليّ من الطول امرؤ متطـــوّلُ[٤٩]

فإن نفس الشاعر الأبية – كما أبانت الصورة فـــى البيتيـــن – لـــها طريقة فريدة فى مغالبة الجوع ، وهى أن تتناساه وتتجاهله وتماطله حتـــى يموت يأساً، كما أنه يشغل نفسه بالغزو ، ولا يورد للجوع خـــاطراً فيذهـــل عنه ، ولا يؤرق به ؛ بل إنه – لعزة نفسه وعلو همته – يفضل أن يســـتف تراب الأرض على أن تكون لأحد منة عليه ، بفضل ما يقدم له من طعـــام .

ومثل هذا التصوير الدقيق القائم على التشخيص فى قولـــه (أديـــم مطال الجوع) وما يكشف عنه من الصراع النفسى والألم البدنـــى،والكنايـــة الدالة على التناسى فى قوله(وأضرب عنه الذكر صفحاً) يكشفان فى وضـــوح عن مرارة الواقع الذى يعانيه الشاعر كل يوم،ويتجرع كأسه ليل نهار.

وفى تصوير حالة الإباء الواضحة فى قوله (أستف تـــرب الأرض) كناية عن شدة التحكم فى شهوات نفسه ، ومدى السيطرة عليها ، والطـــول : المن والإذلال ، والمتطول النعمة التى تكون سبباً لإهدار الكرامة وتجريـــح الذات . وكل ذلك يرفضه الشاعر ، ويفضل عليه الموت جوعاً .

ومن القيم الأخلاقية التى ألح الشعراء الصعاليك على ذكرهـــا فـــى أشعارهم الدعوة إلى تأكيد قيمة الحياة والخفر لدى المرأة العربية ، وهـــى قيمة أصيلة كالشجاعة والكرم والإباء لم تفارق العرب يوماً منـــذ عرفـــهم التاريخ ؛ فيقول سليك بن عمرو فى امرأة تدعى فكيهة من بنى عوار :

لعمـرُ أبيـك والأنبـاء تنمـــى ∴ لنعم الجـــارُ أخـت بنـــى عـــوارا
من الخفِرات لـــم تفضـــح أباهـــا ∴ ولـــم ترفـــع لإخوتـــها شـــنارا
يعاف وصال ذات البـــذل قلبـــى ∴ ويتبـــع الممنّعـــة النـــوارا[٥٠]

فيعطى لنا سليك – من خلال تصويره لخلق هذه المرأة التى وقفـــت تنافح عنه بسيفها عندما تكاثر عليه أعداؤه – صورة مثالية للنظرة العفيفـــة التى ينظر بها الصعلوك إلى المرأة ؛ فهو يمج ويعاف تلك المرأة المتبذلـــة المتكشفة المفرطة ، ويعجب بهذه المرأة أخت بنى عوار التى تميزت بالخفر

وصيانة العرض ؛ فهى لم تفضح أبا ، ولم تسبب العار والذلة لأخ ، كما أنها تعيش ممنعة معصومة من القيل والقال ، نواراً - بيضاء الصفحة ، نقية السيرة - مما يعلق بغيرها من النساء ذات السيرة المشينة المزرية .

وانظر معى إلى قوله (والأنباء تنمى) ؛أى تتسع وتنتشر ، وفى هذا ما يدل على أن أخبار المرأة سواء أكانت خيراً أم شرا تلوكها الألسنة كثيراً ، وتطير بها الآفاق وتتناقلها الأزمان مهما كانت وسيلة النقل الإعلامى بطيئة أو سريعة.وقوله(لم ترفع لأخوتها شنارا)دليل على ارتفاع الأخبار فى الآفاق وانتشارها فى الأعالى لتطير إلى أبعد الأصقاع والأمصار .

ومما يدور حول ذات القيمة قول الشنفرى فى تائيته المعروفة :

لقد أعجبتنى لا سقوطاً قناعها ∴ إذا ما مشت ، ولا بذات تلفتِ
تبيت بُعيد النوم تهدى غبوقها ∴ لجارتها إذا الهدية قلتِ
تحل بمنجاة من اللوم بيتها ∴ إذا ما بيوت بالمذمة حلتِ
كأن لها فى الأرض نِسْياً تقصه ∴ على أمّها ، وإن تكلمْكَ تبلتِ
أميمة لا يخزى نثاها حليلها ∴ إذا ذكر النسوان عفتْ وجلتِ
إذا هو أمسى آب قرة عينه ∴ مآب السعيد لم يسلْ أين ظلتِ
فدقتْ وجلتْ واسبكرتْ وأكملتْ ∴ فلو جُنّ إنسان من الحسن جُنّتِ(٥١)

فهنا رسم الشاعر صورة كاملة عن المرأة الكاملة التى يسعى إليها كل إنسان ، ويتمنى أن تكون له رفيقة درب ، وخير معين على أمرى الدنيا والآخرة ؛ فهى امرأة لا يسقط قناعها ، وهذا كناية عن شدة الحياء ، كما أنه كناية عن أنها ليست من أهل الريبة ، وتؤكد هذا الكناية الأخرى فى قوله (ولا بذات تلفت) .

وتؤثر هذه المرأة الكريمة جارتها بغبوقها - ما يشرب بالعشى - والدليل على الكرم المقرون للإيثار قوله (إذا الهدية قلت) كناية عن زمن الجدب حيث تنفد الأزواد ، وتذهب الألبان لجفاف الضروع الناتج عن جفاف المراعى .

ومن صفات هذه المرأة الكاملة التى كشفت عنها الصورة الشعرية فى شعر الشنفرى الترفع عن المذمة ، والبعد عن الاتهام ؛ فبيتها ناج من اللوم والسوء ، مترفع عنهما ؛ لأن المنجاة التى تحل بها دارها هى المكان المرتفع . وهذا دليل كنائى ، وهناك دليل استعارى فى قوله (إذا ما بيوت بالمذمة حلت) ؛ فجعل بيوت السوء غارقة فى المذمة ، حالة فى بحرها الهادر الذى لا يهدأ .

وانظر معى إلى التشبيه الذى أتى به الشاعر ليدلل على شدة حيائها فى قوله (كأن لها فى الأرض نسياً تقصه على أمها) ؛ فهى حينما لا تلتفت

يمنة ولا يسرة ، ولا ترفع رأساً من شدة حيائها بدت للشاعر وكأنها قد فقدت شيئاً ، فظلت تنظر فى الأرض على أمها - قصدها ووجهتها - أثناء السير إلى منزلها . وقوله (وإن تكلمك تبلت) كناية عن انخفاض الصوت ، وهو أمر محمود فى النساء خاصة ؛ فمعنى (تبلت) تنقطع فى كلامها ولا تطيله .

كما أنك تجد زوجها قرير العين أبداً حينما يذهب إلى رحلته أو يعود، وحُقّ لها لروعة حسنها من جمال الخلقة الجليلة المسبكرة - الممتدة فى الطول - وكمال الخلق أن تحجب وتجن - تخفى - عن العيون لكى لا ينال منها حاسدوها .

وهكذا تكشف لنا الصورة الشعرية فى شعر الصعاليك عن قيم خلقية رفيعة قد آمنوا بها ، ودعوا إليها ، على الرغم مما تعرضوا له فى حياتهم من سوء المعاملة ، وما لاقوه من مذلة وهوان ، ولكن الشيم العربية الأصيلة لا فرق بين من يحرصون عليها فى أن يكونوا سادة مكثرين موسرين ، أو يكونوا صعاليك فقراء مقلين ؛ بل إن الظروف القاسية جعلت للصعاليك شجاعة وإباء فوق الشجاعة والإباء المعروفين لدى الآخرين . كما أن كرمهم كان يتفوق على كرم هؤلاء الفرسان الأغنياء ؛ لأنهم كانوا يعطون من واقع إحساسهم بأن هذا العطاء واجب عليهم نحو إخوانهم الفقراء ، على العكس من هؤلاء الأغنياء الذين كانوا يعطون وهم مترفعون ممتنون بما أعطوا وأنفقوا .

خاتمة

لقد كشفت لنا الصورة الشعرية فى شعر الصعاليك عن القيمة الإنسانية للشعر ، والتى تستمد من عمق التفاعل بين إحساس الشاعر وحركة الحياة وأحداثها على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية ؛ فرأينا – من خلال دراسة الصورة الشعرية فى شعر الصعاليك – صورة صادقة لحال المجتمع الذى عاشوا فيه ، وما عانوه من افتقاد العدالة ، والمساواة فى المعاملة ، وما تعرضوا له من قهر وعنصرية بغيضة قامت على اختلاف اللون أو تفاوت القدر الاجتماعى من جهة المال أو الجاه أو النسب ؛ فخرجوا بسبب ذلك كله على قبائلهم باحثين عن مجتمع جديد ينشدون فيه العدل والحرية والحياة الكريمة .

وقد تحقق لهم هذا فى مجتمع الصعاليك القائم على إقامة الحق والعدل باستخدام القوة ، وهذا راجع إلى أن " مفهوم الحق فى مجتمع الجاهلية يبدو مفهوماً غامضاً ملتبساً ؛ فهو يشتبه بمفهوم القوة ويختلط به ، ويتداخل فيه حتى يوشك أن يتلاشى فى هذا المفهوم ويفنى "(٥٢) .

وواقع التصوير الشعرى لدى الصعاليك يكشف عن أمر فنى يميز شعرهم ، ألا وهو صدق التعبير عن المعاناة الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التى تعرضوا لها فى حياتهم ، واقتصارهم على هذا الموضوع دون التطرق لموضوعات متعددة – كما هو النهج المتبع فى القصيدة الجاهلية – حتى أن بعض مقطوعاتهم الشعرية قد اقتصرت على تصوير حالة الفقر المدقع التى عانوا منها فى البيئة الصحراوية المجدبة .

فنجد تكثيفاً شعرياً حول مسألة الفقر فى معظم أشعارهم ، لدى عروة بن الورد ، وتأبط شراً . وما جاء فى لامية الشنفرى من روعة الصورة الشعرية الرامزة الموحية فى إسقاطه حال الصعلوك على حال الذئب الجائع – خير دليل على ما نقول ، وهذا ما يدعوا إليه النقد الأدبى الحديث ؛ " فليس النص الأدبى – على تميزه واستقلاله – بنية معزولة ؛ بل هو بنية موجودة فى بنية محيطة ؛أى هو بنية،وهو فى الوقت نفسه عنصر فى بنية أخرى،إنه خلق جمالى وثيق الصلة بالمؤلف والمجتمع معا "(٥٣).

وعلى الجانب النفسى استطاع الشعراء الصعاليك أن يصوروا فى أشعارهم حالة القلق النفسى ، والاغتراب الاجتماعى التى نتجت عن القهر الذى ولّد داخلهم هذا النموذج الإنسانى المتمرد الثائر ؛ فجاءت أشعارهم تقطر ألماً ، وتتأجج ثورة وغضبا على من فرضوا عليهم الفقر والمهانة والإذلال .

كما صوروا قيمهم الأخلاقية التى سعوا إلى ترسيخها من خلال الواقع العملى الذى مارسوه فى حياتهم ؛ فإذا ما دعوا إلى الشجاعة فإنهم فرسان الشجاعة فى غاراتهم وعدوهم وغزواتهم ، وإذا ما دعوا إلى الكرم

فهم أهله ، وأحق الناس بأن يوصفوا به ، وإذا دعوا إلى الإباء والاعتزاز بالنفس فهم صادقون فيما قالوا ؛ لأنهم ما تركوا مجتمعاتهم ، وما هجروا قبائلهم إلا من أجل الإباء وعزة النفس التى دعتهم إلى عدم الخنوع ، والركون والاستكانة إلى الذلة والهوان .

وهكذا كانت الصورة الشعرية فى أشعار الصعاليك خير معين على فهم أهم الجوانب الإنسانية فى حياتهم الزاخرة بالأحداث والتقلبات والمفارقات، كما جاءت ترجمة صادقة عن كل ما عانوه من قسوة المجتمع ، وضنك العيش ، وآلام النفوس الأبية وهمومها التى لا تنتهى ؛ فقدمت لنا أشعارهم صورة حية لحياتهم ؛ فبدت هذه النماذج الإنسانية وكأنها شخوص من لحم ودم تتحرك فيما بيننا تعانى وتتألم ، وتثور وتتمرد .

المصادر والمراجع

(١) انظر (الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر) د. عبد القادر القـــط ، مكتبـــة الشباب ــ القاهرة ١٩٧٨ م ، ص٤٣٥ .
(٢) انظر (الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى: النشأة والتطور) د. محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف – القاهرة ١٩٨١م ، ط.أولى ، ص ٤٥.
(٣) انظر (الصورة فى شعر الديوانيين بين النظرية والتطبيق) د. محمـد علـى هديـة، المطبعة الفنية – القاهرة ١٩٨٤م ، ص٤ .
(٤) قراءة ثانية لشعرنا القديم :د.مصطفى ناصف ، دار الأندلس – بيروت ١٩٨١م ،ط. ثانية ، ص٤٩.
(٥) المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين : د. شكرى محمد عيـــاد ، سلسـلة عالم المعرفة – الكويت ١٩٩٣م ، ص٦٨.
(٦) انظر (العصر الجاهلى) د. شـــوقى ضيـف ، دار المعـــارف – القـــاهرة ١٩٨١م ، ط.تاسعة، ص٣٧٥.
(٧) لامية العرب للشنفرى : د. عبد الحليم حفنى ، مكتبة الآداب – القـــاهرة ١٩٨١م ، ص١٤:٩ .
(٨) جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب : أحمد الهاشمى ، المكتبة التجاريـــة – القاهرة ١٩٦٥م ، ج٢ ص٩ .
(٩) الأغـــانى : أبو الفرج الأصفهانى ، تحقيق / عبد الكريم إبراهيم الغرباوى ، ومحمود محمد غنيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٣م ، ج٢١ ص ١٤٦ .
(١٠) المرجع السابق : ج ٢١ ص ١٨٢ .
(١١) انظر (الغـــرباء) فتحى سعيد ، الدار القومية للطبع والنشر – القـاهرة ١٩٦٦م، ص١٢٠ .
(١٢) لامية العرب للشنفرى : ص٤٦ .
(١٣) انظر(مهذب الأغـــانى)محمد الخضرى،مطبعة مصر–القاهرة ١٩٥٠م ج٢،ص٢٥.
(١٤) جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام : أبو زيد القرشى ، تحقيـــق / علـــى محمد البجاوى،دار نهضة مصر للطبع والنشر–القاهرة (د.ت)،ص ٤٥٠، ٤٥١ .
(١٥) انظر (الصعلكة والفتوة فى الإسلام) د. أحمد أميـــن ، دار المعـــارف – القـــاهرة ١٩٨٦م، ط. ثانية ، ص ٢٨ . وكذا (عشاق لكن شـــعراء) فتحـــى ســـعيد ، دار المعارف – القاهرة ١٩٨٤م ، ط. ثانية ، ص ١٤٤ .
(١٦) لسان العرب :ابن منظور ، دار المعارف– القاهرة ١٩٨٤م ، مادة (صعلك)، ج٤ ص٢٤٥١،٢٤٥٢.
(١٧) القاموس المحيط : الفيروزآبادى ، المكتبة التجارية – القاهرة (د.ت) ، ط. خامسة (باب الكاف مع فصل الصاد وما يثلثهما) ج٣ ص٣١٠.
(١٨) انظر (الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى) د. يوسف خليـــف، دار المعـــارف– القاهرة ١٩٧٨م، ط. ثالثة، ص٣٠ وما بعدها.
(١٩) انظر (مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية) د. نـــاصر الديـــن الأســـد ، دار المعارف– القاهرة ١٩٧٨م، ط. خامسة ، ص٤.
(٢٠) جمهرة أشعار العرب :ص٤٥٠.
(٢١) الأغانى : ج٢١ ص١٤٥.
(٢٢) لامية العرب: ص٢٤-٢٦.
(٢٣) المرجع السابق :ص٤٢.

(٢٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب :البغدادى، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٩م ، ج١٠ ص٣٩.
(٢٥) الأغـانى :ج٢٠ ص٣٧٨.
(٢٦) مختار الحكم ومحاسن الكلم: أبو الوفاء المبشر بن فاتك، تحقيق/ د.عبد الرحمـن أيوب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ١٩٨٠م، ط. ثانية ص١٦٣.
(٢٧) انظر (المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام) د. جواد على، مكتبة النهضة – بغداد ١٩٨٠م، ط. ثالثة ، ج٥ ص١٠٠. وأيضاً (مفاهيم العلـوم الاجتماعيـة والنفـس والأخلاق فى ضوء الإسلام) د. أنور الجندى ، دار الاعتصام– القاهرة ١٩٧٧م، ط. أولى ، ص١٨٠.
(٢٨) الأغـانى: ج٢١ ص١٧٩،١٨٠.
(٢٩) المرجع السابق : ج٢١ ص١٨٠.
(٣٠) لامية العرب :ص٣٧-٣٩.
(٣١) انظر (علم النفس والأدب) د. سامى الدروبى، دار المعارف – القـاهرة ١٩٨١م، ط. ثانية ، ص٢٤٨.
(٣٢) الأغـانى: ج٣ ص٩٢٠،٩٢١.
(٣٣) جمهرة أشعار العرب: ص٤٥٢.
(٣٤) المفضـليات: المفضل الضبى، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هـارون، دار المعارف– القاهرة ١٩٨٣م، ط. سادسة، ص٣٠.
(٣٥) جمهرة أشعار العرب: ص٤٥٣.
(٣٦) المرجع السابق: ص٤٥٤.
(٣٧) الأغـانى: ج٢١ ص١٧٥،١٧٦.
(٣٨) المفضـليات: ص٢٩.
(٣٩) الشعر والشعراء : ابن قتيبة ، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، دار المعارف– القـاهرة ١٩٨٢م، ج١ ص٣١٣.
(٤٠) انظر (المرجع السابق) ج١ ص٣٧٢.
(٤١) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصـر بنـى أميـة: كارلونـالينو، دار المعارف– القاهرة ١٩٧٠م، ط. ثانية ، ص٧٢.
(٤٢) المختار من عيون الأخبار: أحمد عبد العليم البردونى، مكتبـة نهضـة مصـر – القاهرة (د .ت) ص٩٦.
(٤٣) مجمع الأحياء: عباس محمود العقاد، مكتبة غريب – القاهرة ١٩٧٨م، ص١٢.
(٤٤) المفضـليات: ص١١٢.
(٤٥) الأغـانى: ج٢١ ص١٧٦،١٧٧.
(٤٦) عيون الأخبار:ابن قتيبة،دار الكتـب المصريـة-القـاهرة١٩٣٠م ط. أولـىج٣ ص٢٦٤.
(٤٧) مهذب الأغانى:ج٢ ص٢٥.
(٤٨) الأغـانى: ج٢١ ص٢١٤.
(٤٩) لامية العرب: ص٢٢.
(٥٠) الأغـانى: ج٢٠ ص٣٨٤.
(٥١) المفضـليات: ص١٠٩.
(٥٢) شعرنا القديم والنقد الجديد: د. وهب أحمد رومية، سلسلة عالم المعرفة – الكويت ١٩٩٦م، ص٢٢٢.
(٥٣) منهج الواقعية فى الإبداع الأدبى: د. صـلاح فضـل، دار المعـارف – القـاهرة ١٩٨٠م، ط . ثانية ، ص٢٠.